**الجمعة 5 أكتوبر 2012**

**حسين ماضي لاعب الأشكال**

# عباس بيضون يتوغل في عمق التجربة الطويلة لفنان كبير:

يقظان التقي

هي رسوم ولوحات ومنحوتات الفنان الكبير حسين ماضي في كتاب يحمل عنوان «ماضي لاعب الأشكال» بقلم شاعر وبحساسية عباس بيضون المركّبة وبحث عما فيه من رؤية ونص تشكيلي وأبجدية جمالية وحسّية مادية وغير مادية بالعالم.

ليست غريبة الكتابة بحد ذاتها وأقرب الكتابات إلى اللوحة هي من شاعر وعينين صافيتين مرآة الأشياء وهو تقليد أرسى علاقاته بعيداً وبعمق بين الفنانين والمثقفين والمفكرين كإبداعات مشتركة من زمنٍ وعصر واحد يتحول فيه التاريخ الفني إلى لحظة واحدة.

ليست غريبة أعمال حسين ماضي لا عن المدينة ولا نقّادها ولا شعرائها، ليست غريبة وهي نافذة على الأشياء وعلى مرايا المدينة.

أعماله تجمع بين التصويرية والتجريدية وتحمل الكثير من المعنى الايحائي التركيبي، وتجمع بين الكلاسيكية المتقنة في رأس ماضي وفي الرأس الذي جسده في الحالة، في غالبيتها وبين طليعية تحويلية توحي باللوحة وما بعد اللوحة.

ولأن حسين ماضي يملك الصرامة والجدية والعزلة الأبدية خلف نافذة المدينة، خلف الوجه، الوجه وما بعده، العنصر المرسوم والمقصوص وما بعده، الجسم ودلالاته، الأشياء وما بعدها، البعد الآخر، الصورة وبعدها العميق. هذا ما يجعل منه فناناً مدينياً ورأساً تأويلياً ينطوي على طبيعة الأشياء الجديدة أو رأساً بهندسة تأويلية.

هو ليس مجرد فنان تشكيلي، هو محترف لعبة وفن ومبدع في ورشات عمل لا تهدأ، يساهم في تأكيد الدلالات المادية بيديه وتحويلها إلى ايحاءات جمالية عبر منحوتاته من الذين لا يغادرون محترفهم وهو بكلتيه من داخل العمل والنتاج. أي بمعنى آخر هو شاعر الغرفة الفنية وليس من خارجها، مع ذلك لوحته حين

تخرج تصير جزءاً من ذلك الفضاء المديني، وكأنها خارجة من اكتمال حالاتها. رائع، بتقنية عالية وبمنظور فني رفيع.

لطالما عُرف حسين ماضي بتملكه لأدواته في الرسم والنحت بالأبيض والأسود، وبالألوان يعرف كيف يمزجها وكيف يحولها إلى موجباتها تحتل موقعاً مهماً في الفضاء المديني. لهذا يصبح توصيف الشاعر عباس بيضون في حسين ماضي لاعب الأشكال والأوراق والحديد والنار واللون والضوء من بداياته من الباب الخلفي لمدينة وصولاً إلى عالمها مدينة أخرى..

بدايات وعرة يرافقها بيضون، ضربات يراها متقشفة ومعقدة لا توحي بالاكتمال ولا بالاغوار الصالوني، صادمة اعتراضية أكثر ونقدية أكثر وبخطوط أولى ما يشبه «التحليل السيزاني» والتعكيبية التحليلية بكل شظايا الخطوط والأشكال الباقية في اللوحة.

هو العنصر النواتي (ADN) حسين ماضي، النظام الذهني الذي يبدو باحثاً وصاحب عدة وحرفة متعددة، وأسلبة للأشياء والمتاح ولا شيء ليتحاشاه وبثرثرة تشكيلية تصويرية لاشكال قائمة وبوجود فيزيائي. هذه اللحظة يسميها بيضون «لحظة انشقاق التجسيد عن التجريد، ولحظة ولادة الشكل الهندسي الجيومتري» من الطبيعة المادية الحسية إلى الطبيعة الايحائية.

أشكال حادة ومستقيمة ذات زوايا وانصاف دوائر، وحروفية وأبجدية ومجازات في الوزن والحجم والثقل والزوايا الصريحة والقطع ونتوئها حد كسور جارحة بين التجسيد والتجريد. ثم يلاحظ بجدية بيضون أن لوحة ماضي ليست عاطفية على الاطلاق وتصد العاطفة قليلاً عنها. أي أنها ليست غنائية مطلقاً. إنها صارمة أولاً، متحملة بنفسها وحدودها وخطابها وزواياها وقواطعها وبنائها المحدد الواضح مع بعض القسوة والتحديد. «لكنها ليست لوحة سهلة بل مصنوعة من قوة اعتراضية لا يمكن اقتحامها ببساطة، إنه تقريباً التوتر والعنف، يتبع رؤية الفنانة الاعتراضية على التماهي الرومنطيقي والمثالية الرمزية والسيولة والشاعرية الانطباعية..». وفي مكان آخر يقول «في اللوحة لا تفاصيل غير ضرورية، ولا إضافات تنميقية، ما يفعله ماضي هو فن الأساس، يصنع حروفه، أشكاله الزخرفية، أشكال الأساس، يؤلف فوراً منها، لذلك لا هوامش في اللوحة، إنها كلها مثنى، أو كلها واجهة.. ليست لوحة حسين ماضي فقط ذات وحدة لكنها شيء واحد إذا جاز القول، بمعنى من المعاني هي ربما المقصود (لوحة واحدة)! نحن أمام فن لا يثرثر رغم قابلية الزخرفة للثرثرة، لا يثرثر لأنه لا يكتفي غالباً باللهو البصري الذي بعد به فن هو أساساً زخرفياً في جانب كبير منه...». ولنا رأي آخر في هذه المقاربة.

كان يمكن أن يكون حسين ماضي مبدعاً في عالم الأرتيزانا والزخرفة والأسلوبية، لكنه كثف لحظة درامية ملأى وصلبة وحولها الى حدث تشكيلي من خاصياته.

ثم يجد عباس بيضون ذلك التواصل عند حسين ماضي بين الزخرفة والاستيهامات الجنسية كما في فن كليمنت حيث الإجماع والاندماج بين الزخرفة والرغبة، بدءاً من الرأس والوجه وفي الفرج ذلك القصد الايروسي الصريح.. وكنوع من تقديس ايروسي للخصب والجمال البوستالي والتوالد: الثور، الحصان، العصفور، الكلب، القطة، ورقة الشجر، التفاحة والمرأة يعرضها على بوابة المدينة.. قد يكون لنشأة ماضي الريفية في شبعا دخل كبير في ذلك وامتداداً الى الصلة بتراث ما بين النهرين والتراث اليوناني القديم ووعي الفن المسيحي والإسلامي من دون أي مسؤولية دينية، بل صناعة حرة فنية من أي غايات مباشرة.

إنه فن التحويل من المجسد الى المجرد ومن التحليل الى التركيب ومن الزخرفي الى الشغف الحسي، والتحويل من المبسط الى المركب ومن الطبيعة أو الجسد الى إيحاءات الخصوبة والجسد مجدداً، في لحظة ولادة، ذلك الفنانة الصعب والمتوتر، الذي يجمع البديهية والحدس الخام والمركب، والفارق في واقعية متباعدة وذهنية متعارضة.

ليس حسين ماضي كلياً في النور كما ذهب الى ذلك عباس بيضون، ولا تخلو أعمال ماضي من خبايا وظلال وإغراءات تحويلية قد تكون أكثر منها تأويلية وربما المقصود في النور كما يعنيه بيضون هو أن فنه ماثل للحضور بلغة هيدغرية.. وبمعنى أن أعمال ماضي ليست على سهولة، بل تحمل إيحاءات تستمر فوق الرسم والنحت ويتحكم بالخطوط والأشكال والألوان..

ما الذي سيبقى من عالم حسين ماضي الفيزيائي؟ وكيف يكون الفنان حراً؟

كتاب شاعري جميل وبنقاط بصرية عالية لعباس بيضون في فن حسين ماضي، قريباً من بيته الروحي ومحترفه المديني وغرفته التصويرية والتحويلية مع الإشارة الى أهمية صوغ تلك العلاقة الجدلية والتفاعلية بين الشاعر والناقد وبين الرسام ما يشبه سيرة المدينة الحديثة والتجول بين مراياها وفضاءاتها المتقابلة.

الى تلك العلاقة الجميلة بين شاعر ورسام ثمة نقاط متباينة مع نص الشاعر بيضون من مثل القول أو التلميح بأن لوحة حسين ماضي هي لوحة واحدة، ولدى الفنان مجموعة مهمة من المراحل، والإيحاء بأن لوحة ماضي غير غنائية وقد تكون التزويقية نفسها عند حسين ماضي غنائية وهي ليست تزويقية متقشفة بأي حال وداخل الصلابة عند ماضي نفسها «ماوية»، وبالحديث عن المراحل ربما الإشارة الى العمل الفني النحتي الهائل عند الفنان وقد يكون أهم من الرسم أو الرسومات. ثم تلك الشعرية الجنسية لإمرأة ليست واقعية، لإمرأة ليست تقريرية وليست تنفيذية بل تأخذ وضعية بخطوط جنسية رائعة، وضعية خاصة وبهندسية تأخذ ملامحها الملونة والمتفردة والشاعرية عند الفنان الى مبحث آخر في الدين.

هنا مقتطف من نص عباس بيضون عن ماضي لاعب الأشكال:

«وماضي بحق لاعب أشكال بقدر ما هو صانع أشكال، انه أيضاً في نقطة التوتر بين الإرادة والحرية فماضي لا يصنع أبجديته لكنه أيضاً يصنع عالمه الذي يملك في أحيان وما وجوداً فيزيائياً. انه لا يعود دائماً إلى وحداته البسيطة فحسب ولكنه يعود أيضاً إلى موضوعاته. له القدرة على ان يقضي العمر كله بين حيواناته الأثيرة ونباتاته الأثيرة ونسائه الأثيرات وداخلياته الأثيرة أيضاً. انه يعود دائماً إليها بقدر من الشغف بل بقدر من النسك، وبقدر من الإعادة الخصبة والمتباينة كل مرة. لنتأمل أحصنته أو ثيرانه لنجد أنفسنا أمام منجم حياة مع هذا الحيوان وهذه النبتة وتلك المرآة، منجم علاقات تتفتح ببداهة وألفة وتفاوت وتباين. هذه العودة المتكررة للموضوع ذاته تصدر بالطبع عن وحدة حياة ووحدة تربة لكنها أيضاً تصنع حياة وتصنع تجربة. فحين نجد أنفسنا في محترف ماضي وبين جدرانه العارية إلا من اللوحات وأرضياته العارية إلا من المنحوتات، وحين ندخل معه إلى الصومعة الصغيرة التي يعيش فيها وهي أيضاً ملأى منحوتات ورسوماً، حين نرى ذلك نفهم بلا ريب ان حياته كلها هنا. أن ما يصنعه في هذا المكان هو أيضاً علاقات وأحداث على نحو ما، وان الشغف الذي يدعوه مرات ومرات لأن يعود لنفس الثور هو نوع من تأمل مثابر في حياته. فهذه الحيوانات والنباتات والنساء تضعه مجدداً داخل الكون بل تعطي عمله كله بعداً كونياً.

الانزياح التدريجي والتوسع البطيء وربما المحسوب هما دأب ماضي. ان عالمه الذي يملك نزوعاً إلى الوحدة والتكرار هو أيضاً العالم الذي يمتلئ أكثر فأكثر، ويفاجئ عند كل منعطف بانتصار على قواعده، أو باختبار جديد لها أو بقدرة على تحويلها إلى ما لا يبدو أبداً أنها تتأهب له. انه يدهش فنه ويوسع باستمرار مساحته التعبيرية، ويقوده كل مرة إلى إيغال جديد وصورة جديدة. انه يرينا كم ان رحلة في العمق وتركيزاً متزايداً هما بلا استنفاد ويمكنهما ان يتجليا في انتشار افقي ومساحات أخرى للإبداع.

لا أعني بهذا الكلام فحسب أعمال ماضي غير التسطيحية ولا محفوراته التزيينية، بل أعني كل مساره الفني. من الوحدات البسيطة تتسلسل مغامرة التركيب والبناء وتمر هذه بتلاوين عديدة يصحح بعضها بعضاً.

فمن القوة نصل إلى الحركة وإلى اللحظة الآنية. ومن الشكل الصارم نصل إلى فرح لوني، ومن المعمار المكين والراسخ نصل إلى خفة وإلى مرح وإلى لعبة راقصة. من الاقتصاد والصرامة نصل إلى السرد والحكاية، من التجريد إلى نوع من الحياة المنزلية وواقعية كل يوم، ومن الجدية إلى قدر من الهزل والفكاهة. انها قدرة لاعب أشكال وصانع أشكال خبير، لكنها أيضاً سيرة حياة كاملة، إذ انها قدرة تتجدد وتتنامى مع الزمن ومع العمر ومع التجربة. هكذا يستولد حسين ماضي من أشكاله الراسخة تلك لوناً أضوأ وخفة وسرداً ومرحاً أكثر(...)». كم جميلة تلك الثنائية الجمالية الرائعة بين الشعر والرسم إذ تحيّ تقاليد ثقافية جريئة وخصبة وتشكل فضاء مدينياً آخر..